

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَأَضْرِبْ لَهُم مِّثْلًا مِّنَ رِّجَالِنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَبٍ وَحَفَفْتَهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ۝٣١﴾

وما زال الكلام موصولاً بالقوم الذين أرادوا أن يصرفوا رسول الله ﷺ عن الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ، وبذلك انقسم الناس إلى قسمين : قسم متكبر حريص على جاهه وسلطانه ، وقسم ضعيف مستكين لا جاء له ولا سلطان ، لكن الحق سبحانه يريد استطراد آياته استطراداً يشمل الجميع ، ويُسَوِّى بينهم .

لذلك : أراد الحق سبحانه وتعالى أن يضرب لنا مثلاً مرجوداً في الحياة ، ففي الناس الكافر الغني والمؤمن الفقير ، وعليك أن تتأمل موقف كل منهما .

قوله تعالى : ﴿ وَأَضْرِبْ لَهُم مِّثْلًا مِّنَ رِّجَالِنِ ۝٣١ ﴾ [الكهف] قلنا : إن الضرب معناه أن تلحق شيئاً بشيء أقوى منه بقوة تؤلمه ، ولا بد أن يكون الضارب أقوى من المضروب ، إلا فلو ضربت بيدك شيئاً أقوى منك فقد ضربت نفسك ، ومن ذلك قول الشاعر :

(١) سبب نزول الآية : ورد في نزول هذه الآية عدة أقوال ، منها :

- نزلت في أخوين من أهل مكة مخزوميين ، أحدهما مؤمن وهو أبو سلمة عبد الله بن عبد الأسد زوج أم سلمة قبل النبي ﷺ ، والآخر كافر وهو الأسود بن عبد الأسد ، وورث كل واحد منهما ٤ آلاف دينار ، فاتفق أحدهما حاله في سبيل الله ، وطلب كفاً شيئاً فقاتل ما قتل . قاله الكلبي وذكره الثعلبي والقشيري .

- وأما : هو حال لميعة بن حصن وأصحابه مع سلمان وصهيب وأصحابه ، فحبهم الله برجلين من بني إسرائيل الآخرين أحدهما مؤمن واسمه يهوذا . في قول ابن عباس . وقال مقاتل : اسمه لميخا ، والآخر كافر واسمه قراطوش . وقد ذكر قصتهما بالتفصيل القرطبي في تفسيره ( ٤١٢٩/٥ - ٤١٣٠ ) .

وَيَا ضَارِبًا بِعَصَاهُ الْحَجَرِ      ضَرَبْتَ الْعَصَا أَمْ ضَرَبْتَ الْحَجَرَ ؟

وَضَرَبَ العِصْلَ يكون لإثارة الانتباه والإحساس ، فيُخرجك من  
حالة إلى أخرى ، كذلك العِصْل : الشيء الفاضل الذي لا تقبضه  
ولا تعيه ، فيضرب الحق سبحانه له مثلاً يوضحه ويُنبهك إليه : لذلك  
قال : ﴿ وَأَضْرَبْ لَهُمْ مَثَلًا .. ﴾ (٣٢) [الكهف]

وسبق أن أوضحنا أن الأمثال كلام من كلام العرب ، يردُّ في  
معنى من المعاني ، ثم يشيع على الألسنة ، فيصير مثلاً سائرًا ، كما  
نقول : جرد حاتم ، وتقابل أي جواد مستناده : يا حاتم ، فلما اشتهر  
حاتم بالجود أطلقوا عليه هذه الصفة . وصمرو بن معد اشتهر  
بالشجاعة والإقدام ، وإياس اشتهر بالذكاء ، واحنف بن قيس اشتهر  
بالحلم . لذلك قال أبو تمام<sup>(١)</sup> في مدح الخليفة :

إِقْدَامُ صَمْرُو فِي سَمَاحَةِ حَاتِمٍ      فِي حِلْمٍ احْتَفَ فِي ذِكَاةِ إِيَّاسِ

فأراد خصوم أبي تمام أن يُصغروا قوله ، وأن يَسْقُطوه من عين  
الخليفة ، فقالوا له : إن الخليفة فرق مَنْ وصفَتْ ، وكيف تُشَبِّه  
الخليفة بهؤلاء وفي جيشه ألف كعمرو ، وفي خزانته ألف كحاتم  
فكيف تشبِّهه بأجلاف العرب ؟ كما قال أحدهم : -

وَشَبَّهَهُ الْمَدَاحُ فِي الْبَاسِ وَالْغِنَى      بِمَنْ لَوْ رَأَى كَانَ أَصْغَرَ خَادِمٍ

فَفِي جَيْشِهِ خَمْسُونَ أَلْفًا كَعَمْرٍو      وَفِي خَزَائِنِهِ أَلْفٌ كَحَاتِمِ

(١) هو : حبيب بن أوس الطائي ، ولد بقرية من قرى الشام ( ١٨٠ هـ ) ، لها شهرة  
مترجمة ، حيث كان يعمل صبيًا لحاكم ، توفي عام ٢٢١ هـ عن ٥١ عامًا .

فألهمه الله الرد عليهم ، على نفس الوزن ونفس القافية ، فقال :  
 لَا تُفَكِّرُوا ضَرْبِي لَهُ مَنْ دُونَهُ      مَثَلًا شَرُودًا<sup>(١)</sup> فِي النَّدَى وَالْبَاسِ  
 فَاللهُ قَدْ ضَرَبَ الْأَقْلَ لِنُورِهِ      مَثَلًا مِنَ الْمَشْكَاةِ وَالنَّبْرَاسِ<sup>(٢)</sup>  
 إذن : فالمثل يأتي لِيُنَبِّهَ الناس ، وليُوضِّحَ القضية غير  
 المفهومة ، والحق تبارك وتعالى قال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَعِجِي أَنْ يَضْرِبَ  
 مَثَلًا مَا يَحْكُمُهُ فَمَا بَوقَهَا .. ﴾ (٢٦) [البقرة]

ثم يعطينا القرآن الكريم أمثالا كثيرة لتوضيح قضايا معينة ، كما في  
 قوله تعالى : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ  
 بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ (٤١) [العنكبوت]  
 وكذا قوله تعالى عن نقض الوعد وعدم الوفاء به : ﴿ وَلَا تَكُونُوا  
 كَالَّذِي نَقَضَتْ غَزَلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا .. ﴾ (٤٢) [النحل]

ومنه قوله تعالى : ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا  
 حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ (٤٧) [البقرة]

ومنه قوله تعالى مُصَوِّرًا حال الدنيا ، وأنها سريعة الزوال :  
 ﴿ وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ  
 فَأَصْبَحَ هَشِيمًا<sup>(٣)</sup> تَلْوَاهُ الرِّيحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا ﴾ (٤٥) [الكهف]

(١) المثل الشرود : الخارج عن المألوف والعادة ، والندى : السقاء والكرم ، والبأس : القوة  
 والحرب .

(٢) النبراس : المصباح والسراج ، والمشكاة : كوة في جدار البيت ليست ببلادة ، وتُعرف في  
 قرانا بـ « الطالة » مع نطق القاف همزة .

(٣) هَشِيمٌ : السطح والطحب المسحط الذي تكسر ، والهشيم : النبات اليابس المتكسر .  
 وتهشم الشهر تهشما إذا تكسر من بؤسه - [ لسان العرب - مادة : هشم ] .

## سورة الكهف

٥٨٩٠١

فالمثل يوضح لك الخفي بشيء جلي ، يعرفه كل من سمعه ، من ذلك مثلاً الشاعر<sup>(١)</sup> الذي أراد أن يصف لنا الاحب قبصوره تصويراً دقيقاً كأنك تنظر إليه :

قَصُورَتْ أَخَادِعُهُ<sup>(٢)</sup> وَغَاصَ قَدَّالُهُ<sup>(٣)</sup> فَكَانَهُ مُتَرَبِّصٌ أَنْ يَصْنَعَا  
وَكَانَمَا صُنِفَتْ قَفَاءُ مَرَّةٍ وَأَحْسَبُ ثَانِيَةً لَهَا فَنَجْمَعَا

وهنا يقول الحق سبحانه : اضرب لهم يا محمد مثلاً للكفر إذا استغنى ، والفقر إذا رضى بالإيمان .

وقوله : ﴿رَجُلَيْنِ .. (٢٢)﴾ [الكهف] أى : هما محل المثل : ﴿جَعَلْنَا  
لأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا (٢٣)﴾ [الكهف]  
لكن ، هل هذا المثل كان موجوداً بالفعل ، وكان للرجلين وجود  
فعلى فى التاريخ<sup>(٤)</sup> ؟

نعم ، كانوا واقعاً عند بنى إسرائيل وهما براكوس ويهوذا ، وكان  
يهوذا مؤمناً راضياً ، وبراكوس كان مستغنياً ، وقد ورثا عن أبيهم  
ثمانية آلاف دينار لكل منهما ، أخذ براكوس نصيبه واشترى به أرضاً  
يزرعها وقصراً يسكنه وتزوج فأنجب له ولدان وحاشية ، أما يهوذا ،

(١) هو ابن الرومي على بن العباس بن جريح ، شاعر كبير من طبقة بهسار والمتنبي ، روى  
الأصل ، كان جده من موالى بنى العباس ، ولد ببغداد ٢٢١ هـ ونشأ بها ، ومات فيها  
مستمراً علم ٢٨٢ هـ عن ٦٢ عاماً . [ الأعلام للزركلى ٢٩٧/٤ ] .

(٢) الاخادع : جمع الأخدع ، وهو كحد عرقين فى جانبى العنق .

(٣) القنال : جماع مؤخر الرأس من الإنسان . [ لسان العرب - مادة : قنل ] .

(٤) ذكر الماوردي فيما نقله عنه القرطبي فى تفسيره ( ٤٦٣١/٥ ) : إن هذا من خبره الله  
شمالى لهذه الأمة ، وليس بخبر من حال ملقمة ، لتزهد فى الدنيا وترغب فى الآخرة ،  
وجعله زجراً وانتذاراً . قال القرطبي : . سياق الآية يدل على خلاف هذا ، والله أعلم .

فقد رأى أن يتصدق بنفسيه ، وأن يشتري به أرضاً في الجنة وقصراً في الجنة وفضل الحور العين والولدان في جنة عدن على زوجة الدنيا وولداتها وبهجتها .

وهكذا استغنى براكوس بما عنده واغترَّ به ، كما قال تعالى : ﴿ كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَآفٍ كَارٍ ۖ أَن رَّاهُ اسْتَغْنَى ۚ ﴾ (٧) [العلق]

وأول الخيبة أن تشغلك النعمة عن المنعم ، وتظن أن ما أنت فيه من نعيم ثمرة جهدك وعملك ، ونتيجة سعيك ومهارتك ، كما قال قارون : ﴿ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي ۚ ۖ ﴾ (٧٨) [القصص] فتركه الله لطمه ومهارته ، فليحرص على ماله بما لديه من علم وقوة : ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبَدَارِهِ الْأَرْضَ ۚ ۖ ﴾ (٨١) [القصص] ولم يتفقه ماله أن علمه .

إذن : هاتان صورتان واقعيتان في المجتمع : كالر يستكبر ويستغنى ويستعلى بفناءه ، ومؤمن قنوع بما قسم الله له .

وانظر إلى الهندسة الزراعية في قوله تعالى : ﴿ جَعَلْنَا لَأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَوْجًا ﴾ (٩٢) [الكهف]

فقد علمنا الله تعالى أن تجعل حول الحدائق والبساتين سوراً من النخيل ليكون سياجاً يصدُّ الهواء والعواصف ، وذكر سبحانه النخل والعنب وهي من الفاكهة قبل الزرع الذي منه الفوت الضروري ، كما ذكر من قبل الاساور من ذهب ، وهي للزينة قبل الثياب ، وهي من الضرورييات .

وقوله : ﴿ جَنَّتَيْنِ ۖ ۖ ﴾ (٩٢) [الكهف] تراها إلى الآن فيمن يريد أن



لذلك . لما أراد الحق سبحانه أن يضرب لنا المثل في مضاعفة الأجر . قال : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَتَتْ سَنِعَ مَسَابِلٍ فِي كُلِّ مِثْقَلَةِ مِائَةِ حَبَّةٍ .. ﴾ (٢٦١) [البقرة]

فإذا كانت الأرض تعطيك بالحبة سبعمائة حبة ، فما بالك بخالق الأرض ؟ لا شك أن عطاءه سيكون أعظم ! لذلك قال بعدما : ﴿ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (٢٦١) [البقرة]

إذن : فالأرض لا تظلم ، ومن عدل الأرض أن تعطيك على قدر تعبك وكذلك فيها ، والحق سبحانه أيضاً يُقدِّر لك هذا التعب ، ويشكر لك هذا المجهود ، والنبى ﷺ لما رأى أحد الصحابة وقد تشقت يداه من العمل قال : « هذه يد يحبها الله ورسوله » (١) .

يحبها الله ورسوله ! لأنها تعبت وعملت لا على قدر حاجتها ، بل على أكثر من حاجتها ، عملت لها وللآخرين ، وإلا لو عمل كلُّ عامل على قدر حاجته ، فكيف يعيش الذى لا يقدر على العمل ؟

إذن : فعلى أصحاب القدرة والطاقة أن يعملوا لما يكفيهم ، ويكفى العاجزين عن العمل ، وهب أنك لن تتصدق بشيء للمحتاج ، لكذلك ستبيع الفائض عنك . وهذا فى حد ذاته نوع من التيسير على الناس والتعاون معهم .

وما أشبه الأرض فى عطائها وسفاتها بالأم التى تُجزل لك العطاء

(١) من ابن عباس - رضى الله عنهما - قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من أمسى كلاً من عمل يديه أمسى مغفوراً له » قال كهيشى فى المصنف ( ٦٣/٤ ) : « رواه الطبرانى فى الأوسط ولله جماعة لم أعرفهم » وعزاه السيوطى فى الدرر المنكبة ( ص ٢٨٨ ) لابن صباكر . وله أيضاً من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه .

إن بررت بها ، وكذلك الأرض ، بل إن الأم بطبيعتها قد تعطيك دون مقابل وتحنو عليك وإن كنت جاحداً ، وكذلك الأرض ألا تراها تُخرج لك من النبات ما لم تزرعه أو تتعب فيه ؟ فكيف إذا أنت أكرمتها بالبر ؟ لا شك ستزيد لك العطاء .

والحقيقة أن الأرض ليست أمنا على وجه التشبيه ، بل هي أمنا على وجه الحقيقة ؛ لأننا من ترابها وجزء منها ، فالإنسان إذا مرض مثلاً يصبر ثقيلًا على كل الناس لا تحصله وتحنو عليه وتزيل عنه الأذى مثل أمه ، وكذلك إن مات وصار جيفة ياتف منه كل أخ مُحِب وكل قريب ، في حين نحتضنه الأرض ، وتمتص كل ما فيه ، وتسقره في يوم هو أحوج ما يكون إلى السُّرر .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَقَجَرْنَا خِلَالَهُمَا نَهْرًا ﴾ (٣٢) [الكهف] ذلك لأن الماء هو أصل الزرع ، فجعل الله للجنين ماءً مخصوصاً يخرج منهما ريتجر من خلالهما لا ياتيهما من الخارج ، فيحبه أحد عنهما .

ثم يقول الحق سبحانه :

وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٩﴾

أي : لم يقتصر الأمر على أن كان له جنتان فيهما النخيل والأعناب والزرع الذي يُؤتى أكله ، بل كان له فوق ذلك ثمر أي : موارد أخرى من ذهب وفضة وأولاد ؛ لأن الولد ثمرة أبيه ، وسوف يقول لأخيه بعد قليل : أنا أكثر منك مالاً وأعزُّ نفراً .



ثم تدور بينهما هذه المحاوردة : ﴿ لَقَالَ لِسَاحِبِهِ وَهَؤُلَاءِ يَحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴾ (٣١) [الكهف]

دليل على أن ما تقدم نكّره من أمر الجنّتين وما فيهما من نعم دُعَتْهُ إِلَى الاستعلاء هو سبب القول ( لِسَاحِبِهِ ) ، والصاحب هو : مَنْ يَصَاحِبُكَ وَلَوْ لَمْ تَكُنْ تَحِبُّهُ ( يُحَاوِرُهُ ) أى : يَجَادِلُهُ بَأَن يَقُولُ أَحَدُهُمَا فَيُرَدُّ عَلَيْهِ الْآخَرُ حَتَّى يَصِلُوا إِلَى نَتِيجَةٍ . فَمَاذَا قَالَ صَاحِبُهُ ؟ قَالَ : ﴿ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا .. ﴾ (٣١) [الكهف] يَقْصِدُ الْجَنَّتَيْنِ وَمَا فِيهِمَا مِنْ نِعَمٍ ﴿ وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴾ (٣١) [الكهف] دَاخِلَةٌ فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَكَانَ لَهُ نَمِرٌ ﴾ (٣١) [الكهف] وَهَكَذَا اسْتَفْتَى هَذَا بِالْعَمَالِ وَالْوَلَدِ .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ

مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِ أَبَدًا ﴾ (٣٢)

عرفنا أنهما جنتان ، فلماذا قال : ﴿ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ .. ﴾ (٣٢) [الكهف] ؟ نقول : لَأَنَّ الْإِنْسَانَ إِنْ كَانَ لَهُ جَنَّتَانِ فَلَنْ يَدْخُلَهُمَا مَعًا فِي وَقْتٍ وَاحِدٍ ، بَلْ حَالُ دُخُولِهِ سَوْفَ يَوَاجُهُ جَنَّةٌ وَاحِدَةٌ ، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ يَدْخُلُ الْآخَرَى .

وقوله : ﴿ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ .. ﴾ (٣٢) [الكهف] قد يظلم الإنسان غيره ، لكن كيف يظلم نفسه هو ؟ يظلم الإنسان نفسه حينما يُرْغِي لَهَا عَنَانِ الشَّهَوَاتِ ، فَيَحْرِمُهَا مِنْ مُشْتَهَيَاتٍ أُخْرَى ، وَيُفَوِّتُ عَلَيْهَا مَا هُوَ أَقْبَى وَأَعْظَمُ ، وَظَلَمَ الْإِنْسَانُ يَقَعُ عَلَى نَفْسِهِ : لَأَنَّ النَّفْسَ لَهَا جَانِبَانِ : نَفْسٌ تُشْتَهَى ، وَوَجْدَانِ يَرُدُّ بِالْقَطْرَةِ .

فالمسألة - إذن - جدل بين هذه العناصر : لذلك يقولون : أعدى أعداء الإنسان نفسه التي بين جنبيه ، فإن قلت : كيف وأنا ونفسي شيء واحد ؟ لو تأملت لوجدت أنك ساعة تُصَدِّت نفسك بشيء ثم تلوم نفسك عليه ؛ لأن بداخلك شخصيتين : شخصية فطرية ، وشخصية أخرى استحواذية شهوانية ، فإن مالت النفس الشهوانية أو انحرفت قُوَّمتها النفس الفطرية وصدَّلت من سلوكها .

لذلك قلنا : إن المنهج الإلهي في جميع الديانات كان إذا عمَّت المعصية في الناس ، ولم يَعدْ هناك مَنْ ينصح ويرشد أنزل الله فيهم رسولا يرشدهم ويذكُرهم ، إلا في أمة محمد ﷺ ؛ لأنه سبحانه حمَّلهم رسالة نبيهم ، وجعل هدايتهم بأيديهم ، وأخرج منهم مَنْ يحملون راية الدعوة إلى الله ؛ لذلك لن يحتاجوا إلى رسول آخر وكان ﷺ خاتم الأنبياء والرسل .

وكانه سبحانه يطمئنتنا إلى أن الفساد لن يعم ، فإن وُجد من بين هذه الأمة العاصون ، ففيها أيضاً الطائعون الذين يحملون راية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وهذه مسألة ضرورية ، وأساس يقوم عليه المجتمع الإسلامي .

ثم يقول تعالى : ﴿ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا ﴾ [الكهف]

فهل معنى هذا أنه ظالم لنفسه بالدخول ؟ لا ، لأنها جنَّة يدخلها كما يشاء ، إنما المراد بالظلم هنا ما دار في خاطره ، وما حدث نفسه به حال دخوله ، فقد ظلم نفسه عندما خطر بباله الاستعلاء بالغنى ، والغرور بالنعمة ، فقال : ما أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ النعمة ، أو تزول هذه الجنة الوارقة أو تهلك ، لقد غرَّه واقع ملموس أمام عينيه استبعد معه

أن يزول عنه كل هذا النعيم ، ليس هذا وفقط ، بل دعاه غروره إلى أكثر من هذا فقال :

﴿ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُودْتُ إِلَىٰ رَبِّي  
لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنْقَلَبًا ۝٣٦ ﴾

هكذا أطلق لغروره العنان ، وإن قبِلَتْ منه : ﴿ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَٰذِهِ أَبَدًا ۝٣٥ ﴾ [الكهف] فلا يُقبلْ منه ﴿ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً .. ۝٣٦ ﴾ [الكهف] لذلك لما أنكر قيام الساعة مرَّتْ الأوامر الوجدانية ، فاستدرك قائلاً : ﴿ وَلَئِنْ رُودْتُ إِلَىٰ رَبِّي .. ۝٣٦ ﴾ [الكهف] أي : على كل حال إن رُودْتُ إلى ربي في القيامة ، فسوف يكون لي أكثر من هذا وأعظم ، وكأنه ضمن أن الله تعالى أعدَّ له ما هو أفضل من هذا .

ونقف لتتأمل قول هذا الجاحد المستعلى بنعمة الله عليه المفلتون بها : ﴿ وَلَئِنْ رُودْتُ إِلَىٰ رَبِّي .. ۝٣٦ ﴾ [الكهف] حيث يعرف أن له رباً سيُرجع إليه ، فإن كنت كذوباً فكُنْ نَكُوراً ، لا تُناقض نفسك ، فما حدث منك من استعلاء وغرور وشك في قيام الساعة يتناقض وقولك ( ربِّي ) ولا يناسبه .

و ( منقلباً ) أي : مرجعاً .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ قَالَ لَهُ صَاحِبُهَا وَهِيَ حَاوِرَةٌ أَكْفَرْتِ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ  
تَرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّكَ رَجُلًا ۝٣٧ ﴾

(١) النطفة : ماء الرجل أو المرأة الذي يُخلق منه الولد . [ القاموس المجمع ٢/ ٢٧١ ] .  
والنطفة : النطفة من الماء . قال ابن منظور في [ لسان العرب - مادة : نطف ] : • وجه  
سُمِّيَ المعنى نطفة لثقله .

هنا يرد عليه صاحبه المؤمن مُحاوراً ومُجادلاً ليُجلى له رَجاء الصواب : ﴿ أَكْفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ .. ﴾ (٢٧) [الكهف] أى : كلامك السابق أنا أنا ، وما أنت فيه من استعلاء وإنكار ، أتذكر هذا كله ولا تذكر بدايتك ومنشأك من تراب الذى هو أصلُ خَلْقِكَ ﴿ ثُمَّ مِنْ نُفْثَةٍ .. ﴾ (٢٨) [الكهف] وهى أصل التناسل ﴿ ثُمَّ مَوَالٍ رَجُلًا ﴾ (٢٩) [الكهف] أى : كاملاً مُستورياً ( ملو هودوك ) .

و ﴿ سَوَّاكَ .. ﴾ (٣٠) [الكهف] التسوية: هى إعداد الشيء إعداداً يناسب مهمته فى الحياة ، وقلنا : إن العود الحديد العُوى مستقيم ، والخطاف فى نهايته أعوج ، والاعوجاج فى الخطاف هو عين استقامته واستواء مهمته : لأن مهمته أن يخطف به الشيء ، ولو كان الخطاف هذا مستقيماً لما أدنى مهمته المرادة .

والهمزة فى ﴿ أَكْفَرْتَ .. ﴾ (٣١) [الكهف] ليست للاستفهام ، بل هى استنكار لما يقوله صاحبه ، وما بدر منه من كُفْر ونسيان لحقيقة أمره وبداية خَلْقِهِ .

والتراب هو أصل الإنسان ، وهو أيضاً مرحلة من مراحل خَلْقِهِ : لأن الله تعالى ذكر فى خلق الإنسان مرة ( من ماء )<sup>(١)</sup> ومرة ( من تراب )<sup>(٢)</sup> ومرة ( من حمأ مسنون )<sup>(٣)</sup> ومرة ( من صلصال كالفخار )<sup>(٤)</sup> .

لذلك يعترض البعض على هذه الأشياء المختلفة فى خلق الإنسان ، والحقيقة أنها شيء واحد ، له مراحل متعددة انتقالية ، فإن أضيفَ الماء للتراب صار طيناً ، فإذا ما خلطت الطين بعنصره ببعض

(١) ذلك قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَا مِنْ مَاءٍ نُحْيِي (٣٥) ﴾ [المجدة] .  
(٢) ذلك فى قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ خَلَقَ مِنْ تَرَابٍ .. ﴾ (٣٥) [الكهف] .  
(٣) ذلك فى قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ .. ﴾ (٣٥) [الروم] .  
(٤) ذلك قوله تعالى : ﴿ وَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ ﴾ (٣٥) [المجدد] .  
(٥) ذلك قوله تعالى : ﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ ﴾ (٣٥) [الرحمن] .

صَارَ جَعًا<sup>(١)</sup> مَسْنُونًا ، فَإِذَا تَرَكْتَهُ حَتَّى يَجِفَّ وَيَتَمَاسَكَ صَارَ صَلَاسًا<sup>(٢)</sup> . إِنَّنِ : فهى مرطبات لشيء واحد .

ثم يقول الحق سبحانه أن هذا المؤمن قال :

﴿لَيْكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ (٢٨)

قوله : ﴿لَيْكِنَّا .. (٢٨)﴾ [الكهف] أى : لكن أنا ، فحذفت الهمزة وأدغمت النون فى النون . ولكن للاستدراك ، المؤمن يستدرك على ما قاله صاحبه : لنا لستُ منك فيما تذهب إليه ، فإن كنت قد كُفِرتَ بالذى خلقك من تراب ، ثم من نطفة ، ثم سَوَّأك رجلاً ، فإنا لم أكفر بمن خلقنى ، فنقرئ واعتقادي الذى أؤمن به : ﴿هُوَ اللَّهُ رَبِّي .. (٢٨)﴾ [الكهف]

وتلاحظ أن الكافر لم يَكُلْ : الله ربى ، إنما جاءت ربى على لسانه فى معرض الحديث ، والفرق كبير بين القولين : لأن الرب هو الخالق المتولى للتربية ، وهذا أمر لا يشك فيه أحد ، ولا اعتراض عليه ، إنما الشك فى الإله المعبود المطاع ، فالربوبية عطاء ، ولكن الألوهية تكليف : لذلك اعترف الكافر بالربوبية ، وانكر الألوهية والتكليف .

ثم يؤكد المؤمن إيمانه فيقول : ﴿وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ (٢٨) [الكهف]

ولم يكتفِ المؤمن بأن أبان لصاحبه ما هو فيه من الكفر ، بل أراد أن يُعَدِّى إيمانه إلى الغير ، فهذه طبيعة المؤمن أن يكون حريصاً على هداية غيره ، لذلك بعد أن أوضح إيمانه بالله تعالى أراد أن يُعَلِّمَ

(١) الحمى والحمأة : الطين الأسود . والمسنون : المسحوب فى قلب إنسانى أو مشحون بصورة إنسان أو طين كالفخار صالح للتصوير والصل . [ القاموس القويم ١ / ٢٢١ ] .

## سُورَةُ الْكَافِرَاتِ

﴿٨٩﴾

صاحبه كيف يكون مؤمناً ، ولا يكمل إيمان المؤمن حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه ، وايضاً من العقل للمؤمن أن يحاول أن يهدي الكافر ؛ لأن المؤمن صُنع سلوكه بالنسبة للآخرين ، ومن الخير للمؤمن أيضاً أن يُصحح سلوك الكافر بالإيمان .

لذلك من الخير بدل أن تدعو على عدوك أن تدعو له بالهداية ؛ لأن دعاءك عليه سيزيد من شقائك به ، وما هو يدعو صاحبه ، فيقول :

﴿ وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا

بِاللَّهِ إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا ۖ ﴾

يريد أن يعلمه سبيل الإيمان في استقبال النعمة ، بأن يرد النعم إلى المنعم ؛ لأن النعمة التي يتقلب فيها الإنسان لا فضلَ له فيها ، فكلها موهوبة من الله ، فهذه الحقائق والبساتين كيف آتت أكلها ؟ إنها الأرض التي خلقتها الله لك ، وعندما حرثتها حرثتها بكّة من الخشب أو الحديد ، وهو موهوب من الله لا تدخلُ لك فيه ، والقوة التي أعانتك على العمل موهوبة لك يمكن أن تُسلب منك في أي وقت ، فتصير ضعيفاً لا تقدر على شيء .

إنن : حينما تنظر إلى كل هذه المسائل تجدها منتهية إلى العطاء الأعلى من الله سبحانه .

خذُ هذا المقعد الذي تجلس عليه مستريحاً وهو في غاية الأناقة وإبداع الصنعة ، من أين أتى الصنّاع بمادته ؟ لو تتبعته هذا لوجدته

قطعة خشب من إحدى الغابات ، ولو سألت الغابة : من أين لك هذا  
الخشب لأجابتك : من الله .

لذلك يُعلمنا الحق سبحانه وتعالى الأدب في نعمته علينا ، بقوله :  
﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ ﴾ (٦٢) أَأَنْتُمْ قَرَّرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّادِعُونَ ﴾ (٦١) [الرابعة]

هذه الحبة التي بذرتها في حقلك ، هل جلست بجوارها تنميها  
وتشدها من الأرض ، فتتمو معك يوماً بعد يوم ؟ إن كل عملك فيها  
أن تحرث الأرض وتبذر البذور ، حتى عملية الحرث سخر الله لك فيها  
البهائم لتقوم بهذه العملية ، وما كان يؤسلك أن تُطوِّعها لهذا العمل  
لولا أن سخرها الله لك ، وذلكها لخدمتك ، كما قال تعالى : ﴿ وَذَلَّلْنَاهَا  
لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴾ (٧٢) [يس]

ما استطعت أنت تسخيرها .

إذن : لو خلقت أيُّ نعمة من النعم التي لك فيها عمل لوجدت أن  
نصيبك فيها راجع إلى الله ، وموَّهب منه سبحانه ، وحتى بعد أن  
ينمو الزرع ويثمر أو يُثمر لا تأمن أن تأتيه آفة أو تحلُّ به جائحة  
فتهلكه ؛ لذلك يقول تعالى بعدما : ﴿ لَوْ نَشَاءُ لَجَمَعْنَاهُ حِطَامًا فَظَلْتُمْ  
تَفَكَّهُونَ ﴾ (٦٥) إِنَّا لَمَغْرُمُونَ ﴾ (٦٦) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴾ (٦٧) [الرابعة]

كما يقول تعالى : ﴿ إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا  
لَيَصْرِمُنَّهَا <sup>(١)</sup> مُصْبِحِينَ ﴾ (١٧) وَلَا يَسْتَنْشُونَ ﴾ (١٨) فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ  
وَهُمْ نَائِمُونَ ﴾ (١٩) فَأَصْبَحَت كَالصَّرِيمِ ﴾ (٢٠) [اللام]

(١) ليصرمنها : أي : حلقوا فيها بينهم ليجنن ثمرها ليلاً لئلا يطعم بهم القير ولا سائل ليتوفر  
ثمرها عليهم ولا يتصدقوا منه بشيء . [ تفسير ابن كثير ٤/٤٠٦ ] .

[الواقعة]

**[المواصلة]**

(۶) اوری القادح زنده : أخرج منه النار . [ القاموس القويم ۲/۲۲۲ ] . قال ابن كثير في تفسيره ( ۲۹۶/۴ ) : أي : تلهوون النار من الزناد وتستخرجونها من أصلها .



فنذكر سبحانه قدرته في خلق النار وإشعالها ولم يذكر ما ينقضها ، ولم يقل : نحن قادرون على إطفائها ، كما ذكر سبحانه خلق الإنسان وقدرته على نقضه بالموت ، وخلق الزرع وقدرته على جعله حطاماً ، وخلق الماء وقدرته على جعله أجاً ، إلا في النار ، لأنه سبحانه وتعالى يريدنا مشتعلة مضطربة باستمرار لتظل ذكرى للناس ، لذلك ذيل الآية بقوله تعالى : ﴿ نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعاً لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٧٣) [الواقعة]

كما نقف في هذه الآيات على ملمح من ملامح الإعجاز ودقة الأداء القرآني : لأن المتكلم رب يتحدث عن كل شيء بما يناسبه ، ففي الحديث عن الزرع - ولأن للإنسان عملاً فيه مثل الحرث والبذر والسقي وغيره - نراه يؤكد الفعل الذي ينقض هذا الزرع ، فيقول : ﴿ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَاماً .. ﴾ (٦٥) [الواقعة] حتى لا يراودك الغرور بعملك .

أما في الحديث عن الماء - وليس للإنسان دخل في تكوينه - فلا حاجة إلى تأكيد الفعل كسابقه ، فيقول تعالى : ﴿ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ أَمْحاً .. ﴾ (٧٠) [الواقعة] دون تأكيد : لأن الإنسان لا يدعى أن له فضلاً في هذا الماء الذي ينهمر من السماء .

نعود إلى المؤمن الذي ينصح صاحبه الكافر ، ويُعلمه كيف

(١) قال ابن عباس ومجاهد وقتادة والضحاك . يعني بالمؤمنين المنافقين ، واختاره ابن جرير . وقال : ومنه قولهم : أقرت النار إذا رُحِلَ لها . وقال مجاهد : يعني المستمعين من الناس أجمعين . وكذا ذكر عن حكيم . قال ابن كثير في تفسيره ( ٢٩٧/٤ ) : « وهذا التفسير أهم من غيره ، فإن العاصم والبيد من غش وفقر ، الجميع محتالون إليها للطبع والاصطلاح والإضاعة وغير ذلك من المنافع » .



وعجبت لمن اغتم - لأن الغم انسداد القلب وبطلة الخاطر من شيء لا يعرف سببه - وعجبت لمن اغتم ولم يفرغ إلى قول الله تعالى : ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (٨٧) [الأنبياء] فإنني سمعت الله بعقبها يقول : ﴿فَاسْتَجِبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ ..﴾ (٨٨) [الأنبياء] ليس هذا فقط ، بل : ﴿وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٨٨) [الأنبياء] وكأنها ( وصيفة ) عامة لكل مؤمن ، وليست خاصة بنبي الله يونس عليه السلام .

فقول المؤمن الذي أصابه الغم : ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ ..﴾ (٨٧) [الأنبياء] أى : لا مفرج لى سواك ، ولا ملجأ لى غيرك ﴿إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (٨٧) [الأنبياء] اعتراف بالذنب والتقصير ، فعمل ما وقعت فيه من ذنب وما حدث من ظلم لنفسى هو سبب هذا الغم الذى أعانيه .

وعجبت لمن مكرب ، كيف لا يفرغ إلى قول الله تعالى : ﴿وَأَقْرِضْ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ ..﴾ (٤٤) [فاطر] فإنني سمعت الله بعقبها يقول : ﴿هُوَ قَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكُرُوا ..﴾ (٤٥) [فاطر] قاله تبارك وتعالى هو الذى سيتولى الرد عليهم ومقابلة مكربهم بمكره سبحانه ، كما قال تعالى : ﴿وَمَكُرُوا وَمَكَّرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ (٤٤) [ال عمران]

وعجبت لمن طلب الدنيا وزينتها - صاحب الطموحات فى الدنيا المتطلع إلى زخرفها - كيف لا يفرغ إلى قول الله تعالى : ﴿مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ ..﴾ (٧٩) [الكهف] فإنني سمعت الله بعقبها يقول : ﴿فَمَنْ رَئَى أَنَّهُ يُؤْتِي خَيْرًا مِنْ حَبِّكَ ..﴾ (٤٥) [الكهف] فإن قلتها على نعمتك حفظت ونمت ، وإن قلتها على نعمة الغير أعطاك الله فوقها .